رحالـة الخليـج العربى ..

# سـلـيمان التاجـر[1]

## ٢٣٧ هـ - ٨٥١ م

السيد عـلي محسن مال الله
بغـداد

سليمان التاجر المعروف بالسيرافى والذى عرف فى القـرن الثالث الهجرى ، يعـد من الرحالة الاوائـل الذين جابوا بحار الهنـد والصـين ، وخلجانهـا .

فقد رحل هذا الرجل من مرفأ سـيراف على الخليج العربـى واختراق المحيط الهندى حتى سيلان ، ومنها الى مضيق ملقا حتـى دخل شواطىء الصـين[2] .

وقد دون ابو زيد حسن السيرافى[3] رحلته فى بداية القرن الرابـع الهجـرى .

---

١- سليمان التاجر : تاجر عراقى الاصل عاش فى سيراف على الساحل الشرقى للخليج العربى جمع كتاب - سلسلة التواريخ/الموسوعة العربيـة الميسرة ص ١٠٤٨ - القاهرة ١٩٦٥ - محمـد شفيق غربال

٢- الجغرافيون العرب - القاهرة ١٩٦٢ . مصطفى الشهابى - ص ٧٢-٧٣

٣- ابو زيد حسن السيرافى : ينسب الى سـيراف على ساحل الخليج العربـى اضاف ذيلا لكتاب - سلسلة التواريخ الذى جمعه سليمان التاجر/الموسوعة العربية الميسرة ص ١٠٨٤

ونود ان نقتفى اثـره ، فنراه يسلك البحر ، فيصف امواجه، وصخبه ، وما فيه من العنبر ، والودع ، ثـم يصف جزائره ومـا فيها من المعادن الثمينة • ثـم يتطرق الى مراسيم الزواج فيهـا، ومن تلك الجزر التى مر بها جزيرة يقال لها ـ المنيان ـ يحدثنـا عنها فيقـول :ـ

«لهـم ذهـب كثـير ، واكلهـم النارجيل ، وبـه يتأدمون ، ويدهنون ، واذا اراد احد منهم ان يتزوج ، لـم يتزوج الا بقحف رأس رجل من اعدائهم ، فاذا قتل اثنـين تزوج اثنتين ، وكذلـك ان قتل خمسين رجلا تزوج خمسين امرأة بخمسين قحفا •• وفيها قوم يأكلون الناس(٤) •

وبعد ذلك نرى رحالتنا ينتقل من جزيرة الى اخرى حتى تطأ قدماه جزيرة ـ ملجـان ـ وهى جزيرة تقع بين سرنديب وكلـه وهى من بلاد الهند ، وعادات هذه الجزيرة تشبه عادات جزيـرة ـ المنيـان ـ التى مر ذكرها ، الا ان عاداتهم فى القتل اكثـر تمثيـلا ، فهم مثـلا «اذا وجدوا الانسان من غير بلادهم علقـوه منكسا وقطعوه نيئا(٥) •

وهكذا يواصل رحالتنا سيره حتى يصل الى الصين فيصـف عاداتهم فيقال :ـ

«وليس لهم نظافة ، ويأكلون الميتة ، وما اشبهها ، مما يصنعه المجوس ، فأن دينهم يشبه دين المجوس ونساؤهم يكشفن رؤوسهن

٤ـ رحلة السيرافى ص ٣١ ـ بغداد ١٩٦١
٥ـ رحلة السيرافى ص ٣٨

ويجعلن فيها الامشاط ، فربما كان فى رأس المرأة عشرون مشطا وغـير ذلـــك(٦) ٠

امـــــا عادة النساء فى وضع الامشاط فى رؤوسهن فأنهـا مما تجده مع بعض الفوارق عند النساء الروسيات اللائى يحدثنا عنهن ابن فضلان فيقول : ـ

«وفى اعناقهن اطواق من ذهب وفضة ، لان الرجل اذا ملـك عشرة الاف درهم صاغ لامرأته طوقا ، وان ملك عشرين الفا صاغ لهـا طوقـين ،، وكذلك كل عشرة الاف يزدادها يزداد طوقـــا لامرأته ، فربما كان فى عنق الواحدة منهـن الاطواق الكثيرة(٧) ٠

وبعد ذلك نرى هذا الرحالة يحدثنا عن موضوع اخر فيتكلم عن ملوك الهند والصين فيقول :ـ

«أهل الهند والصين مجمعون(٨) على ان ملوك الدنيا المعدودين اربعة٠ فأول من يعدون من الاربعة ملك العرب وهو عندهم أجماع لا اختلاف بينهم فيه انـه ملك مـن اعظم الملوك واكثرهـم مالا ، وابهاهم جمالا وانه ملك الدين الكبير الذى ليس فوقه شىء ، ثـم بعد ملك العرب ملك الصين ثـم ملك الروم فملك الهند الملقـب ـ بلهـرا ـ بلهراى ملك المخرمى الاذان وهو عند الهنود اشرفهم٠ وبقية ملوك الهنود منقادون اليه وهو كثير المال يعطى العطاء كما

٦ـ نفس المصدر ص ٤٠

٧ـ رسالة ابن فضلان ص ١٥٠ دمشق ١٩٥٩ تحقيق الدكتور سامى الدهان ٠

٨ـ هناك رأى مغاير لرأى الرحالة يقول :ـ ـ كان ملوك الصين يقولون ان ملوك الدنيا خمسة وسائر الناس اتباع لهم ، فيذكرون ملك الصين ، وملـــك الهند ، وملك الترك ، وملك الفرس ، وملك الروم ، وكانوا يسمون ملـك الصين ملك الناس لان أهل الصين أطوع الناس للمملكة واشدهم انقيـــادا للسياسة ـ /طبقات الامم ـ مطبعة التقدم بمصر ـ بدون تاريخ ـ ص ١٣ لابى القاسم صاعد بن احمد الاندلسى ، المتوفى ٤٦٣ هـ ٠

تفعل العرب ٠٠ وملوكهم يعمرون وربما ملك احدهم خمسين سنة وهم يتفانون فى حبهم للعرب ٠ لذلك تطول اعمارهم على حد زعمهم[٩]» ٠

ويظل هذا الرحالة يحدثنا عن حياة هؤلاء الناس ، بأنهم يتعلمون القراءة والكتابة ٠ ولا يتوج ملكهم الا اذا بلغ الاربعين من عمره ٠ ولا يراه الناس الا كل عشرة اشهر ٠ واذا كان يسكن فى بلدهم غريب من العرب او غيرهم اخذوا الجزية عن ماله فقط٠

واذا عم الغلاء المدينة اخرج السلطان ما فى خزانته وباعه للناس بسعر بخس ٠ واذا ولد مولود كفل السلطان معيشته حتى يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، وبعد ذلك تؤخذ منه الجزية ، اما اذا بلغ الثمانين سنة لم تؤخذ منه الجزية واجرى له من بيت المال ٠ وقد اوضح رحالتنا تلك الصفات حيث يقول :ـ

«والفقير والغنى ، والصغير والكبير من أهل الصين يتعلم الخط ، والكتابة ، ولا يمكن ان يصبح احدهم ملكا الا بعد الاربعين من عمره ويقولون فى ذلك قد حنكته التجارب ، ولهم ملوك صغار يجلسون فى بهو عظيم لينظروا احكام الناس ٠ فأما الملك الاكبر فلا يرى الا كل عشرة اشهر ، يقول :ـ اذا رآنى الناس استخفوا بى ، والرئاسات عندهم لا تقوم الا بالتجبر ٠

واذا غلا السعر عندهم اخرج السلطان من خزانة الطعام فباعه بأرخص سعر فى سعر السوق ، فلا يبقى عندهم غلاء ، ومورد بيت المال الاساسى هو الجزية على الرؤوس ٠

ويختص الملك من المعادن بالملح وحشيش يشربونه بالماء الحار ويباع منه فى كل مدينة بمال عظيم ويقال له (الساخ)[١٠] وهو كثير الورق رطب ومرارته قليلة ٠ فيغلى الماء ويذر عليه فهو

٩ـ رحلة السيرافى ص ٤٠

ينفعهم فى كل شىء . وكل ما يدخل على بيت المال من الجزية هو من هذا الملح وهذا الحشيش .

وفى كل مدينة شىء يدعى (الدرا) وهو جرس على رأس ملك تلك المدينة ، ومربوط بخيط ممدود على ظهر الطريق للعامة كافة ، وبين الملك وبينه نحو من فرسخ ، فاذا حرك الخيط الممدود ادنى حركة تحرك الجرس . فمن كانت له ظلامة حرك هذا الخيط فيتحرك الجرس منه على الملك فيؤذن له بالدخول ليفضى ظلامته ..[١١] .

«وأهل الصين يتناصفون بينهم وليس يذهب لاحد حق ، ولا يتعاملون بشاهد ولا يمين .

وليس عليهم خراج فى ضياعهم ، وانما يؤخذ من الرؤوس على قدر اموالهم . واذا ولد لاحدهم ذكر كتب اسمه عند السلطان، فأذا بلغ ثمانى عشرة سنة اخذت منه الجزية . فاذا بلغ ثمانين سنة لم تؤخذ منه جزية واجرى عليه من بيت المال ويقولون :ـ اخذنا منه شابا ونجرى عليه شيخا[١٢]» .

يتبين مما سبق ان هناك ناحية مهمة فى حياة الناس وضمان معيشتهم ، فالدولة هى المسؤولة عن ذلك الضمان ولعل اهل الصين هم اول من فكر فى الضمان الاجتماعى ، ونظروا الى هذه الناحية الاجتماعية فعالجوها بتلك الطريقة التى تلجأ اليها ارقى الدول فى الوقت الحاضر لمعالجة التكافل الاجتماعى ، ومما لا شك فيه انها لم تتحقق فى الشعوب كافة .

---

١٠ـ الساخ : هو الشاى ـ رحلة السيرافى ص ٤٩

١١ـ رحلة السيرافى ص ٤٩ ـ ٥٠

١٢ـ نفس المصدر ص ٥٠ ـ ٥٢

ويظل رحالتنا مستطردا فى حديثه عن اهل الصين، والهند فيذكر ان اهل الصين يحبون الملاهى ، بينما الهنود ينكرونها · والهنود لا يشربون الشراب حتى الخل منه· وهم لا يحلقون لحاهم، ولا يختتنون ، واذا مات لاحدهم ميت ، فأن صاحب الميت يحلق رأسه ، ولحيته حزنا على المتوفى ·

أما أهل الصين فانهم يعبدون الاصنام ويحلقون الوجوه، ورحالتنا يوضح كل تلك العادات عندما يقول :ـ

«اهل الصين اهل ملاه ، واهل الهند يعيبون الملاهى ، ولا يتخذونها ، ولا يشربون الشراب ، ولا الخل لانه من الشراب · وليس ذلك عن دين ولكن آنفة ويقولون ـ كيف يدير امر ملكه من هو سكران ·· ، ولا يختتن اهل الهند ولا الصين ، واهل الصين يعبدون الاصنام ، ويصلون لها ، ويتضرعون اليها ، ولهم كتب دين · واهل الهند يطيلون لحاهم ربما رأيت لحية احدهم ثلاثة اذرع، ولا يأخذون من شواربهم ، واكثر اهل الصين لا لحى لهم خلقة لاكثرهم ، واهل الهند اذا مات لاحدهم ميت حلق رأسه ولحيته ···(١٣)» ·

«وليس لاهل الصين علم ، وانما اصل ديانتهم عن الهند ··· وكلا البلدين يرجعون التناسخ ، ويختلفون فى فروع دينهم · والطب بالهند والفلسفة · ولاهل الصين ايضا طب واكثر طبهم الكى ، ولهم علم بالنجوم ، وكذلك بالهند اكثر، ولا اعلم احدا من الفريقين مسلما ولا يتكلم العربية(١٤)» ·

---

١٣ـ رحلة السيرافى ص ٥٤

١٤ـ نفس المصدر ص ٥٥ ـ ٥٦

ثـم يتطرق هذا الرحالة الى الزنا فى بلاد الصين ، والحدود الصارمة التى منعت انتشار هذه الرذيلة .

وكذلك من اهم ما يتميز به الشعب الصينى الفن والتصوير فهم من احذق خلق الله كفا فى النقش والصناعة ، وقد شجعهم الملك على ذلك ، ومنح مـا منح من الهبات ، والجوائـز لمن اتقـن رسما او ابدع فنـا .

ومن المناسب فى ذلك السياق ان نذكر ان رجلا رسم عصفورا على سنبلة على قطعة من حرير ، تتراءى للناظر وكأنها حقيقـة، وقـد مر على هذه الصورة زمن ، الا ان احد الرجال استوقفه هذا المنظـر ، وادرك انـه صورة ، وقـاده الى ذلـك برهان قاطـع ان العصفور اذا وقف على السنبلة لابد ان يحدث فيهـا ميـلا وهـذه السنبلة غـير مائـلة . ورحالتنا يحدثنا عن ذلك فيقول :ـ

«ان رجلا منهم صور سنبلة عليها عصفور ، فى ثـوب حريـر لا يشك الناظر اليها انها سنبلة ، وان عصفورا عليها ، فبقيـت مدة ، وانه اجتاز بها رجل احدب فعابها ، فادخل الى ملك ذلـك البلد ، وحضر صانعها ، فسئل الاحدب عن العيـب فقال : المتعارف عند الناس جميعا انه لا يقع عصفور على سنبلة الا امالها ، وان هذا المصور صور السنبلة قائمة لا ميل لها ، واثبت العصفور فوقهـا منتصبا فاخطأ . فصدق ولـم يثب الملك صانعها بشيء(١٥) .

وتعطينا هذه الرواية صورة واضحة عن اهتمام الصينيـين بالرسم والتصوير ، وابداعهم فى هذا الفن ، ونرى الرحالين عامة يؤكدون ذلك ولعل فى مقدمتهم ابن بطوطة الذى افرد بابا فـى

١٥ـ رحلة السيرافى ص ٦٩ ـ ٧٠

رحلته لهذا الفن(١٦) ، وما للصين من شهرة ومقدرة فيه • واحسبهم حتى فى الوقت الحاضر يتميزون بطابع خاص فى فن التصوير •

وبعد ذلك يستأنف السيرافى حديثه عن مدينة الزايج(١٧) وما تشتهر به من عمارة منتظمة ، ومن نباتات كالكافور ، والصندل ، والعاج ، والابنوس •

ثم يتطرق الى ملكها الثرى الذى كان يدخر يوميا لاهل بيته لبنة من ذهب زنتها عدة ارطال ، ويضعها فى احد الغدران وهكذا يصنع فى كل يوم ، ويلقى فى ذلك الغدير ، فاذا ما مات، يوصى بتوزيع ذلك الذهب على افراد عائلته كل حسب منزلته، وقرابته من الملك ، فاذا زاد من ذلك الذهب شىء يوزع على المساكين والفقراء(١٨) •

وبعد ذلك نجد السيرافى يتحدث عن بعض المعارك التى دارت بين ملوك الهند انفسهم على اتفه الاسباب حديثا ليس ذا اهمية• ثم يظل يكرر بعض العادات التى اشرت اليها(١٩) • ويختتم رحلته بذكر اللؤلؤ الذى افرده بالوصف •

## قيمة الرحلة :-

لقد تناولت الاقلام هذه الرحلة بالنقد والدراسة فيذكر كراتشكوفسكى ان قصة سليمان التاجر ترجع الى حوالى ٢٣٧ هـ وان ذكره لسير رحلته ، والبلدان التى وصل اليها ، والمعلومات

---

١٦- رحلة ابن بطوطة ص ٦٣٠ - ٦٣١ بيروت دار صادر ١٩٦٤م •

١٧- الزايج : وقيل الزابج بفتح الباء - اسم لجزيرة جاوا ، والرأى الارجح لجزيرة سومطرة - دائرة المعارف الاسلامية ظ ص ٣٢٤ - ٣٢٥

١٨ رحلة السيرافى ص ٧٨-٨٢

١٩- نفس المصدر ص ٨٣-١٠٤

التي اوردها عن هذه البلدان ، تتميز بالتفصيل والدقة ، الا ان بعض العلماء قد تشككوا فى نسبة هذه القصص اليه • كما ظهر رأى اخر يقول بأن هذه القصص لعربى زار الهند ، ومن الملاحظ انه لا ترد فيها اشارة الى سليمان التاجر الا مرة واحدة •

غير ان ـ فران FRAHN (٢٠) ـ لفت الانظار الى ان ابن الفقيه ينسب هذه القصص صراحة الى سليمان التاجر، ولهذا فان مسألة تأليفه لها لا يحوم حولها ادنى شك حتى بعد مرور خمسين عاما على وفاته(٢١) •

أما ابن الفقيه فقد ذكر جانبا لا بأس به من هذه الرحلة وقد بدأ بقوله : «وذكر سليمان التاجر ان اكثر السفن تحمل من البصرة وعمان وتعبأ بسيراف(٢٢)» • الى اخر ما ذكر • دون ان يبدى رأيا او نقدا او يعلق عليها بشىء •

وقد تناول هذه الرحلة الدكتور حسين فوزى فذكر انها تعد من اهم السجلات العربية عن الاسفار البحرية فى المحيط الهندى وبحر الصين فى القرن الثالث الهجرى • وربما كانت هذه هى الرحلة الاولى التى تحدثت عن سواحل البحر الشرقى والطريق الملاحى على اساس الخبرة الشخصية مع تطبيق المنهج الذى سار عليه(٢٣) • ويعلق الدكتور زكي محمد حسن بهذا الصدد فيذكر ان هذه الرحلة تنفرد بوصف صادق للطرق التجارية ، كما

٢٠ـ فران : ولد سنة ١٧٨٢م فى روستوك من اعمال المانيا • فكان من اطول المستشرقين جلدا على البحث ، انتخب عضوا فى مجمع العلوم الروسى ـ توفي سنة ١٨٥١م ـ المستشرقون ج٣ ص ٩٣٣ • القاهرة ١٩٦٥ لنجيب العقيقي •

٢١ـ تاريخ الادب الجغرافى العربى ط ص ١٤١

٢٢ـ مختصر كتاب البلدان ص ١١ـ١٦ ليدن ١٣٠٢هـ لابن الفقيه •

٢٣ـ حديث السندباد القديم ص ٢٢ ط١ القاهرة ١٩٤٣ للدكتور حسين فوزى

تصف بعض العادات والنظم الاقتصادية ، والاجتماعية ، وتشير لاهم المنتجات فى الهند ، وسرنديب ، وجاوه ، والصين مع ندرة الخوارق ، والاساطير التى تكثر فى احاديث البحارة • وتمتاز ايضا بالاخبار الكثيرة عن علاقة المسلمين بالصين فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة •

ومن الانصاف ان نذكر ان العلماء من المستشرقين قد وضح عندهم صدق كثير مما ورد فى حديث سليمان التاجر عن احوال الصين الاجتماعية والاقتصادية(٢٤) •

ويذكر غوستاف لوبون ان هذه الرحلة تعد اول مؤلف عربى نشر عن بلاد الصين واحوالها الاجتماعية ، والسياسية والاقتصادية(٢٥) •

وبعد ذلك نرى المصادر(٢٦) قد اجمعت على اهمية هذه الرحلة من الناحية التاريخية ، والاجتماعية ، والجغرافية ، بالاضافة الى قيمتها الادبية •

ويتبين لنا من العرض السابق ان رحلة السيرافى لا تخلو من بعض الاعاجيب والتهاويل ، الا ان اكثر ما ورد فيها حقائق واقعية تتفق والدراسات العلمية المعاصرة ، وتعد رحلة السيرافى

---

٢٤ـ الرحالة المسلمون فى القرون الوسطى ص ٢٢ مصر ١٩٤٥م للدكتور زكى محمد حسن •

٢٥ـ حضارة العرب ط٣ ص ٤٦٣ • القاهرة ١٩٥٦م • ترجمة عادل زعيتر •

٢٦ـ مجلة المجمع العلمى العراقى السنة الثانية ١٩٥٢م ـ مقال الجغرافية عند المسلمين والشريف الادريسى ـ بقلم محمد بهجة الاثرى ص ٥٧ •
الرحالة العرب ص ٤٥ • القاهرة ١٩٥٦ • للدكتور نقولا زيادة •
الرحلات ص ٣٢ـ٣٣ • القاهرة ١٩٥٦ للدكتور شوقى ضيف •
الجغرافيون العرب ص ٤١ـ٤٢ للشهابى •
الرحالة المسلمون فى القرون الوسطى ص ٢٢ •

من هذه الوجهة ذات قيمة علمية تتعلق بدراسة حياة الشعـــوب الاخرى ووصف عاداتهم وتقاليدهم ، والحديث عن معتقداتهـــم واديانهم ، وفنونهم المختلفـة كالتصويـر والنحـت ، والعمارة ، وعلومهم التى حذقوها ، وبرعوا فيها • وقد كان من نتائج رحلـة السيرافى تعرف المسلمين على حضارتين تعدان من اقدم الحضارات وازهاها ، اعنى حضارة الصـين وحضارة الهنـد •

# المصـــادر


١ـ تاريخ الادب الجغرافى العربى ط القاهرة ١٩٦٥م ـ لكراتشكوفسكى ٠

٢ـ الجغرافيون العرب ـ القاهرة ١٩٦٢م ـ مصطفى الشهابى ٠

٣ـ حديث السندباد القديم ط١ ـ القاهرة ١٩٤٣ ـ للدكتور حسين فوزى ٠

٤ـ حضارة العـرب ط٣ ـ القاهرة ١٩٥٦م ـ غوسـتاف لوبون ٠ ترجمـــة عادل زعيتـر ٠

٥ـ دائـرة المعارف الاسلامية ج١٠ ٠

٦ـ رحلة ابن بطوطه ٠ بـيروت ٠ دار صادر ١٩٦٤م لابن بطوطه ٠

٧ـ رحلـة السيرافى بغداد ١٩٦١ ـ لسليمان التاجر السيرافى ٠ تحقيـــق عـــلى البصرى ٠

٨ـ الرحالة المسلمون فى القرون الوسطى ٠ مصر ١٩٤٥م ـ للدكتور زكـــى محمـــد حســـن ٠

٩ـ الرحالة العرب ـ القاهرة ١٩٥٦م الدكتور نقولا زيادة ٠

١٠ـ الرحـــلات ـ القاهرة ١٩٥٦م ـ للدكتور شوقى ضيف ٠

١١ـ رسالة ابن فضلان ـ دمشق ١٩٥٩م ـ لاحمد بن فضلان ٠ تحقيق الدكتور سامى الدهان٠

١٢ـ طبقات الامم ٠ مطبعة التقدم بمصر ـ بدون تاريخ ـ لابى القاسم صاعد بن احمد الاندلسى ـ المتوفى ٤٦٣هـ ٠

١٣ـ مجلة المجمع العلمى العراقى السنة الثـانية ـ ١٩٥٢م ـ مقال الجغرافيـة عند المسلمين والشريف الادريسى ـ بقلم محمد بهجة الاثرى ٠

١٤ـ مختصر كتاب البلدان ـ ليدن ١٣٠٢هـ ـ لابن الفقيه ٠

١٥ـ المستشرقون ج٣ ـ القاهرة ١٩٦٥م ـ لنجيب العقيقى ٠

١٦ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ القاهرة ١٩٦٥ ـ محمد شفيق غربال ٠